جبران خليل جبران

حَدِيقة النبيّ



المكتبة الثقافية

جبران خليل جبران

حديقة النبيّ

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

حديقة النبي

١

عاد المصطفى . المختار . المحبوب الذي عاش ضحى موتلقاً حتى أتاه يومه . إلى جزيرة مولده في شهر تشرين ، شهر التذكار .

وما ان اقتربت سفينته من المرفإ حتى انتصب واقفاً على مقدّمها ، ووقف حوله بحّارته . وقد أفعمت قلبه الفرحة بلقاء الوطن .

وراح يتكلّم . والبحر يهدر في صوته . ويقول : « ها هي ذي جزيرة مولدنا . لقد لفظتنا الأرض هنا . أغنية ولغزاً : أغنية تتسامى إلى السماء . ولغزاً تحاربه الأرض . وأي شيء هناك بين الأرض والسماء يُقِلّ الأغنية ويحلّ اللغز سوى هوانا ؟

« لقد لفظنا البحر مرة أخرى إلى هذه الشطآن . وما نحن سوى موجة أخرى من موجاته . دفع بنا لنردّد كلامه . ولكن كيف لنا أن نقوم بذلك ، ما لم نحطّم تناغم قلوبنا على الصخر والرمل ؟

« تلك هي شريعة البحر والبحّارة ، فإذا أنت أردت الحرّية كان عليك أن تحوّل حاجات الحياة إلى ضباب . إنّ ما لا شكل له يَنشد أبداً أن يكون ذا شكل . حتى السديم الذي لا يُعد . يودّ أن يتحوّل إلى شموس وأقمار . ونحن الذين طلبنا الكثير وعدنا الآن إلى الجزيرة قوالب صلبة ، علينا أن نصبح ضباباً مرة أخرى ، ونأخذ في التعلّم من البدء . وأيّ شيء هناك يسمو ويشهق في الأعالي إلا وهو يتحطّم عند الهوى والحرية .

«سنظلّ بعد اليوم ، وإلى الأبد ، ننشد الشطآن التي تملك فيها أن نتغنّى ، ونجد عليها من يستمع إلينا . ولكن ما القول في الموجة التي تتحطم ولا من أذنٍ تسمع تحطّمها ؟ إنّ ما يحتضن أسانا الأعمق ويغذّيه هو تلك الأنغام التي لا يسمعها أحد ، وهذه الأنغام أيضاً هي التي تحفر في قرارة أرواحنا لتصوغ مصائرنا وتقولبها .»

وعند ذاك تقدّم أحد بحّارته وقال : «لقد قُدْتَ أيها المعلم حنيننا إلى هذا المرفأ ، وها نحن وصلنا ، ومع ذلك تتحدّث عن الأسى والقلوب التي ينتظرها التحطّم .»

أجابه قائلاً : «ألم أتحدّث عن الحرية ، وعن الضباب الذي هو حريتنا الكبرى ؟ ومع ذلك ، فإنّني بألم حججتُ إلى جزيرة مولدي حتى كما لو كنت طيف ذبيح جاء يركع أمام أولئك الذين ذبحوه .»

وتكلّم بحار آخر وقال : «ها هي الجماهير على الشاطىء . لقد تنبّأت ، في صمتها ، حتى عن يوم قدومك وساعته ، واجتمعت من حقولها وكرومها ، لانتظارك ، تعبيراً عن حبّها واشتياقها .»

وألقى المصطفى من بعيد ، بنظرةٍ على الجماهير ، فعاودت قلبه ذكريات حنينها إليه ، وصمت .

وارتفعت لحظتئذٍ صرخة من أعماق الشعب ، وكانت صرخة ادّكارٍ واستعطاف .

ونظر إلى بحارته وقال : «وما الذي أتيت به إليهم ؟ صيّاداً كنت أنا في أرض نائية . وقد أفرغت بعزم وتصميم جعبتي من السهام اللهبية التي قدّموها إليّ ، غير أني لم آتهم بالميتةِ منّا ، ولم أتتبّعِ السهام ، ربما كانوا الآن قد انتشروا تحت الشمس مع ريش النسور الجريحة التي لا تهوي على الأرض . ولربما هوت رؤوس السهام بين أيدي أولئك الذين هم في حاجة

إليها ، لينالوا بها خبزاً وخمراً .

« أنا لا أعرف ما حلّ بها وهي تطير ، ولا أين طارت ، غير أني أعرف أنها مالت وهي في السماء .

« حتى ولو كان الأمر كذلك ، لا يزال الحبّ ملء يدي ، وأنتم يا بحارتي لا تزالون توجّهون شراع رؤيتي في البحر ، ولن أكون أبكمَ . سوف يرتفع صراخي حين تضغط يد الفصول على عنقي ، وسأغنّي كلماتي حين تلتهب شفتاي . »

وسرى الاضطراب إلى قلوبهم ، وهو يقول لهم هذه الأشياء ، وتكلم أحدهم قائلاً : « علّمنا أيها المعلّم كلّ شيء ! ربما أدركنا ما تقول لأن دمك يجري في عروقنا ، وأنفاسنا من عبق طيبك . »

عند ذاك أجابهم ، والريح تهبّ في صوته ، وقال : « أتراكم جئتم بي إلى جزيرة مولدي لأكون معلّماً ؟ أنا ما زلت حتى الآن خارج قفص الحكمة وإني لصغير السنّ ، طريّ العود إلى درجة لا تتيح لي أن أتكلّم عن أيّ شيء ، إلا عن نفسي التي ستظلّ إلى الأبد ، النداء العميق للعميق .

« دعوا ذاك الذي يبتغي الحكمة ، ينشدها في زهرة الأقحوان الأصفر ، أو في حفنة من الطين الأحمر . فأنا ما زلت حتى الآن المغنّي ، وسأغني جمالَ الأرض ، وحلمكم الضائع الذي يتنزّه النهار كله بين رقدة اليقظة ورقدة الكرى ، غير أني لن آلوَ تحديقاً إلى البحر . »

ودخلت السفينة المرفأ ، وبلغت الشطّ ، وهكذا وصل إلى جزيرة مولده ، ووقف مرة أخرى بين أهله ، وارتفعت صرخة عالية من أعماق قلوبهم ، اهتزّت لها صحراء حنينه في قرارة سريرته .

وخيّم عليهم الصمت وهم يتوقّعون سماع كلماته ، ولكنه لم يستجب لهم ، لأن كآبة الذكرى أفعمت نفسه ، وقال في سرّه : « ألم أقل إنني

سأغني ؟ ها أنا لا أملك إلا أن أفتح شفتيّ ، ولصوت الحياة أن يغدو ويروح مع الريح لينعم بالفرح ويعين عليه . »

وعند ذلك ، تقدمت كريمة ، تلك الصبيّة التي كانت تلعب معه في حديقة أمه ، وقالت : « أخفيت عنّا وجهك اثني عشر عاماً ، ومنذ اثني عشر عاماً ونحن نتلهّف لسماع صوتك . »

ونظر إليها برقّة متناهية ، لأنّها هي التي أطبقت جفون والدته حين أقلتها أجنحة الموت البيضاء إلى السماء .

ثم أجاب قائلاً : « اثنا عشر عاماً ؟ قلت : منذ اثني عشر عاماً يا كريمة ؟ أنا لا أقيس حنيني بمقياس المجرّة ، ولا أرجّع عمق الصدى منها ، وذلك لأنّ الحب عندما يكون حبّ حنين يستنفد مقاييس الزمن ، وترجيعاته.

« هنالك لحظات تحمل دهوراً من فراق ، والنوى مع ذلك ليس إلاّ ضنى الروح ، وربما نحن لم نبتعد قطّ عن بعضنا . »

ونظر المصطفى إلى الناس ، وأبصر جمعهم كلّه ، شيباً وشباناً ، هزالى ومعافين ، أولئك الذين لفحتهم الشمس والريح ، والذين تبدو عليهم نضرة النعيم ، ورأى على وجوههم شعاعاً من الشوق والسؤال .

وتكلّم أحدهم فقال : « لقد خيّبت الحياة ، أيها المعلم ، آمالنا ورغائبنا ، خيبة مريرة ، وإن قلوبنا لواجفة ، فلا ندرك بعد شيئاً . أرجوك أن ترفّه عنا ، وتكشف لنا معاني أحزاننا . »

واختلج قلبه بالرأفة وقال : « الحياة أقدم من جميع الكائنات الحية ، حتى الجمال تجنّح قبل أن يولد الجميل على الأرض ، والحقيقة منذ كانت حقيقة ، عُرفت ووُجد من تفوّه بها .

« الحياة تتغنّى في صمتنا ، وتحلم في كرانا ، وحتى عندما نُغلب على أمرنا ونهوي ، تظلّ الحياة سامية محتلية عرشها . وعندما نبكي ، تبسم

الحياة للنهار . وتكون حرة حتى عندما تجرّ سلاسل عبوديّتنا .

« كثيراً ما نطلق على الحياة أفظع النعوت والأسماء . عندما نكون نحن أنفسنا في ظلمة ومرارة . وكثيراً ما نحسبها جوفاء لا جدوى فيها . عندما تتيه أرواحنا ضالّة في القفار الجرداء . وتكون قلوبنا سكرى بخمرة الحرص والجشع .

« الحياة عميقة وسامية ونائية غامضة . وإنها مع ذلك لقريبة . وإن كان نظركم الواسع لا يستطيع أن يبلغ إلا أقدامها . وإن ظلّ ظلّكم يعترض طلعتها . وإن كان تنفّسُ نفَسكم لا يبلغ إلا قلبها . وكان صدى أدقّ همسة منكم يتحوّل إلى ربيعٍ وخريفٍ في صدرها .

« والحياة مقنّعة ومخبّأة . تماماً كما هي روحكم الكبرى مقنّعة وخافية . عندما تتكلم الحياة . تتحول مع ذلك الرياح جميعها إلى كلمات . وحين تتكلّم ثانية . تتحوّل البسمات على شفاهكم . والدموع في عيونكم . إلى كلمات أيضاً . وعندما تتغنّى يسمعها الصمّ وترتفع بهم إلى سمائها . وحين تقبل ماشية يهلّل لها ذوو الأبصار المكفوفة . وتأخذهم الدهشة . ويتبعون خطاها في رعدة وذهول . »

وانقطع عن الكلام ، وغمر الناس صمت شامل ، وارتفع في فضاء ذلك الصمت نشيدٌ لا يُسمع . وسرّي عن الحضور ما كانوا فيه من همّ وضيق .

٢

. . . وكان منه أن تركهم ، وسلك الطريق القويم الذي يقود رأساً إلى حديقته التي كانت من قبل حديقة أمه وأبيه ، وفيها كانا يرقدان كما كان يرقد أجدادهما .

وكان هناك أولئك الذين سيأتون من بعده ، ورأى بأم عينه أنها المقرّ الأخير ، وأنّه وحيدٌ فيها ، إذ لم يبق ثمة أحد من أقاربه يحتفل بقدومه ويقيم مأدبة الترحيب به على طريقة أهله .

إلا أن ربّان سفينته نصحهم قائلاً : « دعوه يتابع طريقته في الحياة ، وتحمّلوه ، لأن خبزه خبز الوحدة ، وفي كأسه خمرة الذكرى التي يحتسيها وحده . »

وقفل بحاروه راجعين لأنّهم كانوا يعرفون أن أمره كما أنبأهم به ربّان السفينة ، وكبح أولئك الذين تجمعوا على الشطّ من اندفاعهم نحوه وعادوا برمتهم من حيث أقبلوا .

ولكن كريمة وحدها تبعته ، بخطى وئيدة ، وفيها توقٌ إلى وحدته وذكرياته ، ولم تقل شيئاً ، إلاّ أنها حوّلت وجهة سيرها نحو بيتها الخاص ، وفي الحديقة ، في ظلّ اللوزة بكت ، ولم تدر لم تبكي .

٣

وجاء المصطفى ، ولقي حديقة أمه وأبيه ، ودخلها ، وأغلق بوّابتها بحيث لا يستطيع أحد أن يلجها بعده .

وأقام أربعين يوماً وليلة وحده في ذلك المنزل وتلك الحديقة ولم يفد عليه أحد ، إذ كانت مقفلة ، والكل يعرفون أنه متفرد ، وحيد .

وعندما انتهت الأيام الأربعون بلياليها فتح المصطفى البوّابة ، وأصبح في مستطاع الناس أن يدخلوا .

وجاءه تسعة رجال ليقيموا معه في الحديقة : ثلاثة بحارة من سفينته . وثلاثة ممّن كانوا يخدمون في المعبد ، وثلاثة من رفاقه في اللعب أيام كانوا صبية معاً . وهؤلاء كانوا تلامذته .

وذات صباح ، جلس تلامذته حوله ، وكانت عيناه تأتلقان بذكريات بعيدة ، وتهيمان في أقاصٍ نائية . ومخاطبه . أول من خاطبه ، ذلك التلميذ الذي كان يدعى « حافظ » : « حدّثنا يا معلم عن مدينة أورفليس ، وعن تلك الأرض التي أقمت فيها تلك السنوات الاثنتي عشرة . »

بقي المصطفى صامتاً ، وألقى ببصره بعيداً على الروابي ، والمدى الأثيري الرحب ، وبدا صمته مشحوناً بصراع داخلي .

ثم قال : « يا أصدقائي ويا رفاق طريقي ، ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين .

« ويل لأمة تلبس مما لا تنسج ، وتأكل مما لا تزرع ، وتشرب مما لا تعصر .

« ويل لأمّة تحسب المستبدّ بطلاً ، وترى الفاتح المذلّ رحيماً .

«ويل لأمة تكره الشهوة في أحلامها ، وتعنو لها في يقظتها .

«ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا مشت في جنازة ، ولا تفخر إلا بالخرائب ، ولا تثور إلا وعنقها بين السيف والنطع .

«ويل لأمة سائسها ثعلب ، وفيلسوفها مشعوذ ، وفنّها فنّ الترقيع والتقليد .

«ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودّعه بالصّفير ، لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير .

«ويل لأمة حكماؤها خرس من وقر السنين ، ورجالها الأشداء لا يزالون في أقمطة السرير .

«ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء ، وكل جزء يحسب نفسه فيها أمّة .»

٤

وقال أحدهم : «حدثنا عن هذا الذي يجيش في صدرك الآن .» فنظر إلى مخاطبه ذاك ، وارتفع في صوته نغم كأنّه كوكب يتغنّى ، وقال :

«عندما تكون صامتاً مصغياً إلى ذاتك العميقة ، في حلمك المستيقظ ، تنثال أفكارك انثيال الثلوج المندوفة ، وتتهاوى وتنتثر وتلف أصداء فضائك بصمت أبيض .

«وأي شيء هي الأحلام المستيقظة سوى غمام يبرعم ويتفتح في شجرة سماء قلبك ؟ وأي شيء هي أفكارك سوى الأوراق التي تذروها رياح قلبك على الروابي وجفونها ؟

«وكما أنت تنتظر السلام حتى يتخذ في سريرتك ما لا شكل له شكلاً ، كذلك لا بدّ أن يتجمّع الغيم ويتراكم إلى أن تشكّل الأنامل المباركة أمنيته الدكناء : في بلّور صغير من شموس وأقمار ونجوم .»

وتناول الحديث عند ذاك سركيس ، وهو الذي خالجه بعض الشكّ . فقال : «ولكن الربيع سيأتي ، وتذوب ثلوج أحلامنا وأفكارنا ، ثم لا يبقى منها أثر .»

فأجابه قائلاً : «عندما يأتي الربيع ليلتقي حبيبته في الغياض والكروم الهاجعة ، ستذوب الثلوج في الحقيقة ، وتجري سواقيَ تنشد النهر في الوادي ، وتحمل الكؤوس لسقيا أشجار الآس والغار .

«وكذلك هو شأن الثلج في قلبك ، فإنّه سيذوب عندما يأتي ربيعك ؛ وكذلك يجري سرّك سواقيَ تنشد نهر حياتك في الوادي؛وسيلفّ النهر سرّك ويحمله إلى الخضمّ الكبير .

«ستذوب جميع الأشياء حين يأتي الربيع وتتحول إلى أناشيد . حتى الكواكب ، وقطع الثلج التي تنهال ببطء على الحقول الفسيحة ؛ ستذوب في سواقٍ تترنّم . وعندما تشرق شمس «طلعته» على الأفق الأرحب ، أيّ رواء متجمّد لا يتحوّل بعد ذاك إلى أغنية منسابة ؟ وأي امرىء منكم لا يود أن يكون ساقي الآس والغار ؟

«إنّه لم يمضِ عليكم سوى ليلة واحدة ؛ كنتم قبلها تتحرّكون مع البحر المائج ، بلا ذات ولا شاطىء . ثم نسجت لكم الريح ، وهي أنفاس الحياة ، شراعاً من نور على محياها ؛ ثم جمعتكم يدها ووهبتكم شكلاً ؛ وتطلّعتم إلى الأعالي برأس شامخ . ولكن البحر تبعكم من بعد ؛ وظلّت أغانيه تفعم قلوبكم . وسيظلّ إلى الأبد يعنو عليكم . وإن نسيتم ذوي قرباكم . وإلى الأبد سيظلّ يناديكم .

« ولسوف تتذكّرون على الدوام أعماق فؤاده البارد ، في متاهاتكم بين الجبال والصحراء ، وإنكم ، وإن لم تعرفوا أغلب الأحيان ، لأي معنى تتوقون ، فإنّما أنتم تتوقون في الحقيقة ، إلى سلامه الرحب الرتيب .

« وكيف يمكن أن يكون خلاف ذلك ؟ عندما يتراقص المطر أوراقاً متناثرة على الرابية في الغابة والحديقة ، وعندما ينهال الثلج بركةً ووفاء ، وعندما تقودون قطعانكم في الوادي إلى النهر ، وعندما تلتقي في حقولكم الغدران كأنها سواقٍ من لجين ، وتلتحق بالحلل السندسيّة في المروج ، وعندما تعكس الأنداء في خمائلكم صورة السماء على الأرض ، وعندما يحجب الضباب في مروجكم لدى المساء ، طريقكم بحجاب شفّاف ، يكون البحر في هذه الأويقات كلّها ، معكم شاهداً على تراثكم ، ناشداً حقّه في حبكم .

« إنّه انثيال الثلج في أعماقكم يهبط على البحر . »

٥

وذات صباح ، عندما كانوا يتمشون في الحديقة ، ظهرت وراء البوّابة امرأة ، وكانت كريمة التي أحبّها المصطفى كأخت في أيام صباه ، ووقفت دون أن تسأل شيئاً ، أو تقرع البوابة بيدها ، وإنّما كانت تحدّق سادرة كئيبة في أرجاء الحديقة .

ورأى المصطفى الشوق في جفنيها ، فمشى بخطىً وئيدةٍ ناعمة ، نحو الجدار ، وفتح لها البوابة فدخلت ، ورحّب بها .

ثم أخذت المرأة تخاطبه قائلة : « ما الذي حملك على هجرنا جميعاً ،

فلا نملك بعدُ أن نستنير بضياء طلعتك ، ونحن الذين أحببناك ، وانتظرنا بلهفة عودتك وسلامتك ؟ إن الشعب يناديك الآن ، ويودّ سماع حديثك ، وأنا رسولته إليك ، جئت ألتمس منك أن تظهر نفسك للناس ، وأن تتحدّث إليهم عما اختزنت من حكمة ، وأن تجبر قلب الكسير ، وتنير أذهاننا التي هيمن عليها جنون الظلمات . »

حملق فيها ، وقال : « إذا كنت لا تحسبين الناس كلهم حكماء ، فلا تناديني بوصفي حكيماً . فأنا ثمرة فجّة ، لا أزال عالقاً بالغصن ، وحتى الأمس لم أكن سوى برعم تفتّح .

« وإياك أن تحسبي أحداً منكم مجنوناً ، لأنّنا لسنا ، في الحقيقة ، حكماء ولا مجانين . نحن أوراقٌ خضر على شجرة الحياة ، والحياة نفسها فوق الحكمة ، وهي قطعاً فوق الجنون .

« وأنا ، هل هجرتكم ، وعزلت نفسي عنكم في الحقيقة ؟ ألا تعلمين أن ليس ثمة من بعد سوى ذاك الذي لا تملك الروح أن تقطعه بالخيال ؟ وعندما تقطع الروح تلك المسافة ، تصبح هذه المسافة نفسها نغماً في الروح ؟

« إن المسافة التي تفصلكم عن جاركم القريب الذي لا تصادقونه أبعد في الحقيقة ، من تلك التي تفصلكم عمن تحبون ، وهو يقيم وراء الأرضين السبع والسماوات السبع .

« ذلك بأن الأبعاد لا وجود لها في التذكار ، والمسافة الشاسعة إنما تكون في النسيان ، وهي مما لا يستطيع صوتك ولا عينك اختصاره .

« هنالك طريق سرّيّة بين شطآن المحيطات وذروة أعلى الجبال ، عليكم أن تقطعوها ، في اللحظة التي تتحدون بها مع أبناء الأرض .

« وهنالك طريق خفيّة بين معرفتكم وفهمكم عليكم أن تكتشفوها في اللحظة التي تتحدون بها مع الإنسان ، ومن ثمة مع أنفسكم .

« هنالك هوّة سحيقة بين اليد اليمنى التي تعطي ، واليد اليسرى التي تأخذ . ولا سبيل إلى إزالة هذه الهوّة بينهما إلا بحملهما معاً على العطاء والأخذ في آنٍ واحدٍ ، لأنكم لا تستطيعون التغلّب على تلك الهوّة إلاّ عندما تعرفون أن ليس هناك ما تأخذون ولا ما تعطون .

« الحقّ إنّ أبعد مسافة إنما هي تلك التي تقوم بين رؤياكم في النوم ويقظتكم . وبين ما هو ليس إلا حاجة وما هو رغبة .

«ولا تزال هنالك طريق أخرى عليكم أن تقطعوها حين تصبحون مع الحياة شيئاً واحداً . غير أني لا أقول شيئاً عن تلك الطريق الآن . وأنا أرى أنكم أصبحتم متعبين من السفر . »

٦

ومضى مع المرأة . هو والتسعة ، حتى بلغ ساحة السوق . وتحدّث إلى الناس ، إلى أصدقائه وجيرانه . وكان الفرح يغمر قلوبهم ويظهر على جفونهم .

ثم قال : « أنتم تكبرون في النوم . وتحيون أكثر حياتكم في أحلامكم . وذلك لأن كلّ أيامكم تنفق في الشكر لما نلتم خلال هدأة الليل .

« وإنكم لتفكرون أغلب الأحيان وتقولون عن الليل إنّه وقت الراحة مع أنّه في الحقيقة وقت السعي والتحصيل .

« النهار يزوّدكم بقوة المعرفة . ويعلم أناملكم الحذق في فنّ الأخذ ولكن الليل هو الذي يقودكم إلى خزانة كنز الحياة .

« الشمس تلقّن جميع الأشياء أن تغذّي في نفسها الحنين إلى النور

ولكن الليل هو الذي يرفعها إلى النجوم .

« إنّها هدأة الليل التي تنسج . في الحقيقة . ثوب العرس على الأشجار في الغابة . والأزهار في الحديقة . وتمدّ من ثمة المائدة السخيّة وتُعِدّ غرفة العرس إعداداً مغرياً . وفي جوّ ذلك الصمتَ القدسي يتكوّن الغدُ في رحم الزمن .

« وهكذا تجدون القوت والكفاية في أنفسكم ، ومن خلال سعيكم يظلّ لوح الأحلام ممدوداً . وغرفة العرس مُعَدّة ، وإن تحت اليقظة في الفجر الذاكرة . »

وسكت برهةً من الزمن ، وهم ينتظرون عودته إلى الكلام ، ثم نطق ثانية ، وقال : « أنتم أرواح وإن كنتم تتحرّكون في أبدان ، وإنكم لكالزيت الذي يحترق في الظلام ، شعلٌ ، وإن حملتم في مصابيح .

« وإذا أنتم لم تكونوا شيئاً سوى أجساد ، فإن موقفي أمامكم وخطابي إياكم ، لن يكون سوى هراء ، كما لو كان ميت يخاطب أمواتاً . ولكن الأمر على غير ذلك ، فكل ما هو خالد فيكم إنما هو حرّ آناء الليل وأطراف النهار ، ولا سبيل إلى الحجر عليه وتقييده . لأن تلك هي مشيئة القدير الأعلى . أنتم نَفَسُه الذي لا يُقبض عليه ولا يمكن أن يزجّ في قفص. شأنكم في ذلك شأن الريح . وأنا أيضاً نَفَسٌ نَفَسه . »

وانصرف من بينهم يمشي وئيداً . وولج حديقته من جديد . ولكن سركيس الذي خامره بعض الريب فيما سمع . تكلّم قائلاً : « وما القول في القبيح أيها المعلم ؟ إنّك لا تذكر القبيح أبداً في أحاديثك . »

أجابه المصطفى ، وكانت كلماته تنهال كالسوط ، وهو يقول : « يا صديقي ! أنّى لامرىء أن يدعوك بخيلاً إذا هو مرّ بمنزلك ولم يقرع بابك ؟

« ومن هو هذا الذي يزعم أنّك غافلٌ وأصمّ إذا هو كلّمك

بلسان غريب لا تفهم منه شيئاً ؟

« أليس ما تحسبه قبحاً هو ذاك الذي لم تجهد قطّ في بلوغه ، ولا تلهّفت قطّ إلى ولوجه ؟

« إذا كان القبح شيئاً ما ، فما هو في الحقيقة ، إلاّ قشرة الصدإ على عيوننا ، والوقر في آذاننا .

« لا تدع شيئاً قبيحاً يا صديقي ، سوى الخوف الذي يخالج روحاً ما حيال ذكرياتها الخاصة . »

٧

وفيما كانوا جالسين ذات يوم في ظلال أشجار الحور ، تكلّم أحدهم قائلاً : « أنا يا معلم خائف من الزمن . إنّه يمرّ بنا ، ويسلبنا صبانا ، فما هو الشيء الذي يعطيه بدلاً منه ؟ »

أجابه قائلاً : « خذ الآن حفنةً من التراب . قد تجد فيها بذرة ؛ وقد تجد دودة ، فإذا كانت يدك كبيرة وقوية بما فيه الكفاية، فإن في وسع البذرة أن تصير إلى غابة ، والدودة إلى جمع من الملائكة . ولا تنس أن السنين التي حوّلت البذور إلى غابات ، والديدان إلى ملائكة ، إنما يعود أمرها كلّه إلى هذا « الآن » ، كل السنين قائمة في « الآن » هذا نفسه .

« وأيّ شيء هي فصول الأعوام سوى أفكارنا تتغيّر وتتبدّل ؟ الربيع يقظة في صدركم ، والصيف ما هو إلا اعتراف بأثماركم ، والخريف أما هو العتيق من غنائكم لترنيمة لا تزال طفلةً في كيانكم ؟ وهل الشتاء ، أنا

أسألكم ، سوى رقدة طويلة تفعمها الأحلام بالفصول الأخرى كلّها ؟ »

ونظر عند ذاك مأنوس ، التلميذ البحّاث ، إلى ما حوله ، ورأى أغراساً مزهرةً تعلقت على شجرة جمّيز ، وقال : « ها هي الطفيليات يا معلم . ما تقول فيها ؟ إنها لصوص ذات أجفان نهكها التعب ، تسلب النور من أبناء الشمس أولي العزم ، وتتباهى بالنسغ الذي يتدفّق في أغصان هؤلاء وأوراقهم. »

أجابه المصطفى قائلاً : « كلنا يا صديقي طفيليات ، إنّنا نحن الذين نحوّل المدر إلى حياة نابضة ، لسنا أرقى من أولئك الذين يأخذون الحياة مباشرةً من المدر ، دون أن يعرفوا المدَر .

« هل لأمّ أن تقول لطفلها : « أنا أردّك إلى الغابة ، أمك الكبرى ، لأنك ترهقني قلباً ويداً » ؟

« أم هل للمغني أن يزجر الأغنية التي ينشدها قائلاً : « عودي الآن إلى كهف الأصداء الذي أتيت منه ، لأن إنشادك يستهلك أنفاسي » ؟

« وهل للراعي أن يقول للفصيل الذي أدرك عامه الأول : « ليس لديّ مرعى أستطيع أن أقودك إليه ، وعليك الآن أن تنفصل عن أمك ، وتضحّي بنفسك في سبيل هذه القضيّة » ؟

« أصخ يا صديقي ! كلّ هذه أسئلة تلاقي أجوبتها قبل أن تُطرح . وهي تتحقّق مثل أحلامك قبل أن تنام .

« إنّنا نعيش بعضنا على بعض وفقاً للشريعة القديمة السرمدية . دعنا نعش هكذا في نعيم الحب . وإنّنا لننشد بعضنا البعض في وحدتنا ، ونتسكّع على الطريق ، حين لا يكون لدينا موقدة نجلس إلى جانبها .

« إن أوسع طريق ، يا أصدقائي وإخواني ، إنما هو طريق رفاقكم من الناس .

« وهذه الأغراس التي تعيش على الشجرة ، تمتصّ حليب الأرض

أثناء هدأة الليل الناعمة ، والأرض بدورها ترضع ثدي الشمس أثناء حلمها المادىء .

« والشمس ، شأنها شأنكم ، وشأني وشأن كل كائن ، تجلس مساويةً لغيرها في الشرف ، إلى مأدبة الأمير الأعظم ذي الباب المفتوح أبداً ، والمائدة الممدودة أبداً .

« يا صديقي مأنوس ، كل ما هو كائن يعيش على كل ما هو كائن . وكل ما هو كائن يعيش بالإيمان الذي لا ساحل له ، على رحمة العليّ الأعلى . »

٨

وذات صباح ، والسماء لم تأتلق بعدُ بالنور ، راح الجميع يتنزّهون في الحديقة ، ويتأمّلون المشرق ، وهم صامتون حيال الشمس الطالعة .

وأومأ المصطفى ، بعد برهة ، بيده وقال : « ليست صورة شمس الصباح في قطرة الندى ، أقلّ من الشمس . وانعكاس الحياة في روحكم ليس أقلّ من الحياة .

« إن قطرة الندى تعكس النور لأنها هي والنور شيء واحد ، وأنتم تعكسون الحياة ، لأنكم أنتم والحياة شيء واحد .

« وعندما يخيّم الظلام عليكم ، قولوا : « الظلام فجر لما يولد بعد ، وعندما يلفّني الليل بجلبابه ، فإن الفجر يولد في نفسي على نحو ما يولد فوق الروابي . »

« وليست قطرة الندى التي تتداح كرةً في شفق الزنبق ، غير شبيهة

بكم ، وأنتم تجمعون روحكم في قلب الله .

« وإن خطر لقطرة الندى أن تقول : « ولكني سأظلّ بعد ألف سنة قطرة ندى » قولوا لها : « ألا تعلمين أن نور تلك الأعوام كلها يشرق في دائرتك ؟ »

٩

وذات مساء هبّت عاصفة كبيرة على المكان ، وذهب المصطفى وتلامذته التسعة ، خلال هبوبها ، وجلسوا حول النار هادئين ، صامتين .

ثم تكلّم أحد التلامذة قائلاً : « أنا وحيد ، يا معلّم ! وحوافر الزمن تمر على صدري ثقيلة الوطء ، بطيئة الخطى . »

وقف المصطفى ، وانتصب في وسطهم ، وقال بصوت يشبه عصف الريح الهائجة : « وحيد ! وماذا في الأمر ؟ جئت إلى هذا العالم وحيداً ، وستمضي وحيداً في الضباب .

« إشرب كأسك إذن ، وأنت صامت ، وحيد . لقد أعطت أيام الخريف شفاهاً أخرى ، أقداحاً أخرى ، وملأتها بخمرة مرة وعذبة كما سبق لها أن ملأت كأسك .

« إشرب كأسك وحدك ، وإن كان لها طعم دمك ودموعك ، واحمد الحياة على نعمة الظمإ ، فإن قلبك من غير ظمإ ليس إلاّ شطاً لبحر قاحل ، لا نشيد فيه ، ولا جزر ولا مدّ .

« إشرب كأسك وحدك ، واشربها بفرح ،

« يرفعها فوق رأسك . وعبّ منها نخب أولئك الذين يشربون وحدهم.

« لقد حدث لي مرة أن سعيت في عشرة الناس . وجلست معهم إلى الموائد . وشربت معهم كثيراً ، ولكنّ خمرهم لم تصعد إلى رأسي ، ولا سرت في جوفي . وإنما هوت فحسب إلى أقدامي ، وتخلّت عني حكمتي مغاضبة . وختّم على قلبي وأصبحت مغلقاً . ولم يبق سوى قدميّ معهم في دخانهم .

« ثم لم أسع من بعد قطّ في معاشرة الناس . ولا شربت الخمر معهم على مائدتهم .

« ولذلك أقول لك : ماذا وإن راحت حوافر الزمن تمرّ على صدرك ثقيلة الوطء ؟ إنّ من الخير لك أن تشرب كأس أساك وحيداً ، فستشرب كأس نعيمك وأنت وحيد أيضاً . »

١٠

وذات يوم أقبل فردروس الاغريقي يتمشّى في الحديقة . فعثرت قدمه بحجر . وسخط لذلك ، ثم دار والتقط الحجر . وقال بصوت خافت : « يا لك من شيء ميت في طريقي ! » وقذف به بعيداً .

وقال المصطفى المختار ، الحبيب : « لماذا تقول : يا لك من شيء ميت ؟ هل قضيت زمناً طويلاً في هذه الحديقة على هذه الحال ، وأنت لا تعرف أن ليس فيها شيء ميت ؟ إن جميع الأشياء هنا تحيا وتتألق بضياء النهار وجلال الليل . أنت والحجر شيء واحد . هنالك فرق وحيد في نبضات القلب . فإن

قلبك ينبض على نحو أدق قليلاً . أليس كذلك يا صديقي ؟ إلا أنه لا ينطوي على هدوء الحجر .

« يمكن أن يكون لخفقه نغم آخر ، غير أني أقول لك : إذا أنت سبرت أغوار روحك وقست أعالي الفضاء ، فإنك لن تسمع سوى أغنية واحدة ، والحجر والنجم يترنّمان بتلك الأُغنية معاً في جوقة متكاملة منسجمة .

« وإذا كانت كلماتي لا تبلغ فهمك ، فدعها إذن إلى فجر آخر . وإذا كنت قد لعنت هذا الحجر الذي عثرت به في حمّى عماوتك ، فهل تلعن النجم لو أن رأسك ارتفع حتّى اصطدم به في السماء ؟ ولكن اليوم الذي تجمع به الحجارة والنجوم على نحو ما يجني الولد زنابق الوادي ، آتٍ قريباً ، وعند ذاك ستعلم أن جميع هذه الأشياء مفعمة بالطيب والحياة . »

١١

وعندما بلغت أصوات الأجراس في المعبد آذانهم ، وكان ذلك في اليوم الأول من الأسبوع ، تكلّم أحدهم وقال : « إنّا لنسمع في جوارنا يا معلم ، كلاماً كثيراً عن الله ، ماذا تقول في شأنه ، ومن هو في حقيقة أمره؟ »

ووقف أمامهم كأنّه شجرة شابّة لا تخشى الريح ولا العاصفة ، وأجاب قائلاً : « فكروا الآن ، أيها الرّفاق الأحبّاء ، في قلب يحوي قلوبكم جمعاء ، في حُبّ يحيط بكلّ حبّ يخالجكم ، في روحٍ تغلّف أرواحكم كلّها ، في صوت ينطوي على أصواتكم جميعها ، في صمت أعمق من كلّ صمت تمرون به ، فيما هو سرمدي .

«ثم حاولوا أن تدركوا في كمال ذاتكم جمالاً أبهى من جميع الأشياء البهيّة. ونشيداً أرحب من أناشيد البحر والغابة. وجلالاً يقيم على عرش، كوكبة الجبّار أمامه ليست سوى موطىء قدم. وبيده صولجان ليست حياله نجوم الثريا سوى وميض لقطرات ندى.

«لقد قصرتم نشدانكم دوماً على المأكل والمأوى. على اللباس والأثاث، فانشدوا الآن «واحداً» لا هو بهدف لسهامكم. ولا بكهف حجري يقيكم عوادي الطبيعة.

«وإذا كانت كلماتي صخرةً ولغزاً. فانشدوا. وليس هذا أقلّ ما يطلب إليكم. أن تخشع قلوبكم وتنكسر، وأن تسوقكم ضراعاتكم إلى حبّ العليّ الأعلى وحكمته. إلى ذلك القدير الذي يدعوه الناس: الله.»

وخيّم الصمت عليهم جميعاً، وسرت الحيرة إلى قلوبهم، واضطربوا في قرارة نفوسهم. وأشفق عليهم المصطفى. ونظر إليهم برقة وقال:

«لنقف الآن عن الكلام في شأن العليّ الأعلى. ربّ الأرباب. ولنتكلم عن الأرباب من جيرانكم وإخوانكم، وعن عناصر الطبيعة التي تثور حول منازلكم وفي حقولكم.

«إنكم لتودّون أن ترتفعوا بالخيال إلى النعيم. وتحسبون ذلك علوّاً. وتودّون أن تعبروا البحر الرحيب وتدّعون أن ذلك مسافة شاسعة: غير أني أقول لكم إنكم تبلغون. إذ تزرعون بذرة في الأرض. مكاناً أعلى. وعندما تمجّدون وراء الصباح لقريبكم. تقطعون بحراً أرحب.

«إنكم تترنمون أكثر الأحيان باسم الله السرمدي. غير أنكم لا تسمعون. في الحقيقة. النشيد الذي تترنمون به. هلاّ أصغيتم إلى أغاني العصافير. إلى أنين الأوراق التي تنتزعها الريح عن الأغصان حين تهبّ عليها. ولا تنسوا. يا أصدقائي. أن هذه لا تغنّي إلا عندما تفارق الأغصان!

« وإنّي لأكرر عليكم ما أمرتكم به . أن لا تتكلّموا عن الله الذي هو الكلّ في الكلّ . من غير وعي أو تقدير . ولكن أحرى بكم أن يتحدّث بعضكم عن بعض . ويفهم الواحد منكم الآخر . قريباً لقريب . وإلهاً لإله .

« بم يقتات الفرخ في العشّ إذا هجرته أمه وحلّقت في أجواز السماء ؟ وأنّى لشقيقة النعمان في الحقـل أن تتكامل إذا لم تلقحها نحلـة برحيق شقيقة غيرها ؟ .

« إنكم لا تتصعدون السماء التي تدعونها « الله » إلا عندما تضيعون في ذاتكم الصغيرة . هلاّ جهدتم في أن تجدوا سبل الرّشاد في ذاتكم الكبرى . هلا سعيتم في أن تكونوا أقلّ كسلاً مما أنتم عليه وأخذتم في تعبيد الطرق !

« لقد كان من الأحكم . يا أصدقائي ورفاقي . أن يقلّ كلامنا عن الله الذي لا نستطيع أن نفهمه . ويكثر حديثنا بعضنا عن بعض . إذ يتاح لنا أن نتفاهم . وكان بودّي أن تعرفوا . مع ذلك . أنّنا عبق الله وأريج طيبه . نحن الله في الورقة . في الزهرة . وأغلب الأحيان في الثمرة . »

١٢

وذات صباح . عندما ارتفعت الشمس . تقدم أحد التلامذة . وكان من أولئك الثلاثة الذين لعب معهم في أيام صباه . وقال له : « تهلهل ثوبي يا معلم ، وليس لديّ غيره . فاسمح لي أن أذهب إلى السوق وأساوم . علّ الحظّ يتيح لي أن أحصل على كساء جديد . »

حدّق المصطفى مليّاً إلى الشاب وقال : « اعطني ثوبك » فخلع

الشاب ووقف عارياً في الهجيرة .

وعند ذاك ، راح المصطفى يقول بصوت شبيه بالصوت الذي يحدثه مهرٌ يعدو على طريق : «العاري وحده يعيش في الشمس . والساذج وحده يركب الريح . والذي يضيع عن طريقه ألف مرة ، هو الوحيد الذي يبلغ منزلاً يطمئنّ فيه .

«لقد تعب الملائكة من الحاذقين المدّعين بالفطنة . وجاءني البارحة ملاك ، لم يأتني إلاّ البارحة ، وقال لي : «خلقنا جحيماً لأولئك الذين يتباهون . أي شيء يمحو المظهر اللمّاع ، ويذيب الشيء حتى يردّه إلى جوهره سوى النار ؟ »

«وقلت : «ولكنكم تخلقون أيضاً ، إذ تخلقون الجحيم ، شياطين للقيام بأمره . » فردّ الملاك قائلاً : «إنما يقوم على الجحيم أولئك الذين لا تنال منهم النار . »

«يا للملاك الحكيم ! إنّه يعرف سُبُلَ الرجال وطرائق أنصاف الرجال . إنّه واحد من أولئك الأبرار الذين يأتون لمعونة الأنبياء حين يوسوس لهم المخادعون الأذكياء . ولا ريب أنّه يبتسم عندما يبتسم الأنبياء ، ويبكي أيضاً عندما يبكون .

«العاري وحده ، أيها الأصدقاء والبحّارون ، يعيش في الشمس . والربّان الذي لا دفّة له وحده هو الذي يركب البحر العباب ولا يبالي ، وذو النفس المظلمة هو الذي يُظلم في الليل ويستيقظُ مع الفجر ، والوحيد الذي يدرك الربيع هو الذي ينام مع الجذور تحت الثلج .

«ذلك بأنكم تشبهون الجذور ، فأنتم بسطاء كالجذور ، ولكم مع ذلك حكمة بالغة ، هي التي تستقونها من الأرض . وأنتم صامتون ، ولكن لكم مع ذلك من أغصانكم التي لما تولد بعد ، جوقة الرياح الأربع .

«أنتم واهون ، لا شكل لكم . ولكنكم مع ذلك بداية أشجار سامقة جبّارة ، ومستهلّ أدواح تناطح السحاب .

«أقول لكم ثانية وأكرر : لستم سوى جذور بين التراب والسماوات المتحركة . وكثيراً ما شاهدتكم ترتفعون لترقصوا مع النور. غير أني رأيتكم أيضاً يخامركم الحياء وأنتم ترتفعون . وكل الجذور يخامرها الحياء . لقد أخفت قلوبها زمناً طويلاً . فلا تعرف بعدُ ما تصنع بقلوبها .

«ولكنّ نواراً سيأتي . ونوار عذراء لا تعرف الراحة . وسيكون منها أن تحنو على الروابي والسهول . »

١٣

وتقدّم إليه أحد الذين خدموا في المعبد ، ضارعاً وقال : « علّمنا يا معلّم أن تكون كلماتنا مثل كلماتك . غناء للناس وطيباً عابقاً . »

أجابه المصطفى قائلاً : «سوف تسمو على كلماتك . ولكن طريقك ستظلّ نغماً وأرجاً : نغماً للمحبين وكلّ مَن هم أحباء على السواء . وأرَجاً لأولئك الذين يودّون الحياة في بستان .

«بيد أنك ستسمو على كلماتك إلى ذروة يتناثر فوقها غبار النجوم وستفتح يديك حتى تمتلئا . وعند ذاك ستضطجع وتغفو كما يغفو الفرخ في عش أبيض ، وتحلم بالغد كما تحلم البنفسجة البيضاء بالربيع .

«أجل ! وستغوص إلى أعمق من كلماتك . ستنشد ينابيع الجداول التائهة ، وستكون كهفاً مخبّأ يردّد أصداء الأصوات الخافتة التي تتعالى في

الأعماق ، وأنت لا تسمعها الآن .

« ستغوص إلى أعمق من كلماتك ، إلى أعمق من كل الأصوات ، إلى قلب الأرض : وهناك ستكون وحيداً « معه » ، مع ذاك الذي يسير أيضاً على المجرّة . »

وبعد برهة ، سأله أحد التلامذة قائلاً : « حدّثنا أيها المعلّم ، عن « الكون ، ما هو ؟ »

نظر المصطفى إليه ملياً ، وشعر بالعطاف حبّ نحوه ، ثم وقف ، ومشى بضع خطوات بعيداً عنهم ، ثم عاد وقال : « هنا ، في هذه الحديقة يرقد أبي وأمّي ، دفنتهما أيدي أحياء ، وفي هذه الحديقة ترقد مدفونة بذور الأمس ، جاءت بها إلى هنا أجنحة الريح ، وسيدفن أبواي هنا ألف مرة ، وألف مرة ستدفن البذور هنا ، ولذلك سوف نأتي أنا وأنتم وهذه الأزهار معاً لألف سنة في هذه الحديقة ، كما نحن الآن ، ولسوف « نكون » نحب الحياة ، ونحلم بالمدى ، ونتسامى نحو الشمس .

« غير أن « الكينونة » الآن ، إنما هي أن تكون حكيماً ، لا غريباً مع ذلك،عن المجنون ، أن تكون قوياً ولكن لا لتسيء إلى الضعيف ، وأن تلعب مع الأطفال ، لا كوالد بل كرفيق يودّ أن يتعلّم ألعابهم .

« وهي أن تكون بسيطاً ووديعاً مع الطاعنين في السنّ من الرجال والنساء ، وتجلس معهم في ظلّ السنديانة العتيقة ، وإن كنت لا تزال تمشي مع الربيع .

« هي أن تسعى وراء شاعر وإن كان يعيش وراء سبعة أنهر ، وتهدأ في حضوره ، لا تريد شيئاً ، ولا ترتاب في شيء ، ولا تتبس شفتاك بسؤال .

« هي أن تعرف أنّ القدّيس والخاطيء أخوان توأمان ، أبوهما « الملك الغفور » ، وأن أحدهما ولد قبل الآخر بلحظة فقط ، ولذا نحن ننظر

إليه على أنه أمير متوّج .

« هي أن تتبع الجمال حتى وإن قادك إلى حافّة الهاوية ، وهو ، وإن كان مجنّحاً وأنت بلا أجنحة . وإن مرّ فوق الهاوية . عليك أن تتبعه ، لأنه حيث لا جمال . لا شيء هناك .

« هي أن تكون بستاناً بلا جدران . وكرماً بلا حارس . وخزانة كنز مفتوحة للعابرين .

« هي أن تكون سليباً ، مخدوعاً ، مخيّباً ، أجل ! ومضلّلاً . وقع في الفخ . ومع ذلك كلّه تنظر من عليا، ذاتك الرحبة إلى ما هو دونك . وتبتسم عارفاً أن ثمة ربيعاً لا بدّ أن يأتي إلى كرمك ليرقص في أوراقه . وخريفاً لينضج عناقيده . عارفاً أنه لو ظلّ لديك شباك واحد مفتح على الشرق . لن يفرغ منزلك أبداً . عارفاً أنّ جميع أولئك الذين اعتبروا أشراراً . ولصوصاً . ومحتالين . وغشّاشين . إنما هم إخوتك في الفاقة . وأنك ربما كنت هؤلاء جميعاً في نظر أهل تلك المدينة اللامنظورة . القائمة فوق هذه المدينة .

« والآن أوجه الكلام إليكم أيضاً أنتم ذوي الأيدي البارعة التي تصوغ وتوجد جميع الأشياء اللازمة لرفاهية عيشنا في الليل والنهار :

« الكينونة هي أن تكون حائكاً ذا أنامل تبصر . وعمّاراً واعياً للنور والمدى ، أن تكون حرّاثاً وتشعر أنك تخبّىء كنزاً في كلّ بذرة تزرعها . أن تكون صياداً وقناصاً ذا رأفة بالسمكة والطريدة . وأن تكون إلى ذلك . أرأف بالجائع والمحتاج من بني الإنسان .

« وأقول فوق كل شيء ما يلي : أريد أن يكون كل واحد منكم ، كائناً من كان ، شريكاً وعوناً لغيره في تحقيق غايته الطيبة النبيلة

« كونوا . يا أصدقائي وأحبائي . شجعاناً لا وديعين . رحاب الصدور

لا محدودين محصورين ، حتى إذا جاء أجلي وأجلكم كان في الحقيقة ، ذاتكم الكبرى . »

وانقطع عن الكلام ، وخيم على النسمة ظلام دامس ، وتحوّلت قلوبهم عنه ، لأنّهم لم يفهموا شيئاً مما قال :

وراح الرجال الثلاثة من البحّارة يحنّون في تلك اللحظة إلى البحر ، والثلاثة الذين كانوا يخدمون المعبد ، يتوقون إلى سُلُوّ حالهم في حرمه ، والثلاثة الذين لعبوا معه أيام صباه ، يتشوّقون إلى ساحة السوق . كان الجميع صُمّاً حيال كلماته ، لدرجة أن أصداءها كانت ترجع إليه ، كالطيور المتعبة التي فقدت المأوى تحوم بحثاً عن ملجأ .

ومشى المصطفى بضع خطوات نأى بها عنهم في الحديقة ، دون أن يقول شيئاً ، أو ينظر إليهم .

وراحوا يتشاورون فيما بينهم ويبحثون عن عذرٍ يبرّر رغبتهم في الذهاب .

وهنا ، انصرفوا ، وذهب كلّ واحد منهم إلى مكانه ، وظلّ المصطفى المختار ، الحبيب ، وحيداً ، فريداً . . .

١٤

وعندما أقبل الليل ، وضرب سرادقه على الكون كلّه ، توجّه نحو المقبرة التي ترقد فيها والدته تحت شجرة الأرز التي كانت تتعالى شامخةً ، وهناك ، أطلّ طيف نور عظيم على السماء ، وتألقت الحديقة التلاقة حلية على صدر الأرض .

وصاح المصطفى ، من قرارة الوحدة التي تلفّ روحه ، وقال[1] :

« لقد أثقلت روحي بثمرتها الناضجة ، من ترى يأتي ويأخذها ويكون بها مسروراً ؟ أما هنالك من صائم طيب القلب ، كريم النفس ، يأتي ويفطر على أول نتاج لي ، ويخفف بذلك من عبء خصبي ؟

« إن روحي تتدفّق بخمرة العصور ، أما هنالك من ظامىء يأتي فيشرب ؟

« ها إنّ هنالك رجلاً وقف على مفترق الطرق ، ويداه ممدودتان للعابرين ، وقد امتلأتا بالحُليّ والجواهر ، وهو ينادي المارّة ، قائلاً : « ارثوا لحالي ، وخذوا مني ، أرجوكم باسم الله العليّ العظيم أن تأخذوا منّي ما في يديّ وتواسوني .

« ولكن المارّة كانوا ينظرون إليه فقط ، وما فيهم من أحد أخذ ما في يده .

« ولو أنّه كان متسوّلاً يمدّ يده ليأخذ ! نعم ! يمدّ يداً مرتعشة ويرجعها فارغةً إلى حضنه ، لكان خيراً له من أن يمدّها ملأى بالعطايا الوافرة ، ولا يجد من يتقبّلها .

« وها إن هنالك أميراً أيضاً ذا لطف وأريحية ، ضرب خيامه الحريرية بين الجبل والصحراء ، وأمر خدمه أن يشعلوا النار علامةً يهتدي بها الغريب والتائه ، كما وجّه عبيده إلى الأمكنة النائية والطرق الموحشة يراقبونها بحثاً عن الضيوف ، ولكنهم لم يجدوا فيها أحداً .

« ولو أن ذلك الأمير كان رجلاً عادياً لا يُعرف من أين أتى ولا كيف أتى ، راح ينشد القوت والمأوى ، بل لو كان هو نفسه التائه المعدم الذي لا يملك سوى أسماله وكشكوله ، لكان خيراً له ، وللقي عند انسدال الظلام أشباهه من الشعراء والمشرّدين ، وشاركهم في تسوّلهم وتذكاراتهم وأحلامهم .

1 ورد هذا المقطع بلغة جبران العربية في « المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية» صفحة ٤٨٩ تحت عنوان « نفسي مثقلة بأثمارها» التي طبعت في مطبعة دار صادر – بيروت .

« وها إن هنالك ابنة ملك عظيم ، استيقظت من سباتها وارتدت رداءها الحريري ، وتحلّت بلآلئها وجواهرها ، ونثرت المسك على شعرها ، وغمست أناملها في العنبر ، ثم نزلت من برجها العالي إلى حديقتها ، حيث احتفل الندى بمقدم حذائها الذهبي .

« وراحت ابنة الملك العظيم تنشد الحبّ . في الحديقة . خلال هدأة الليل ، ولكنّ أحداً من أبناء مملكة أبيها الواسعة ، لم يكن يحبّها .

« لقد كان من الأفضل لها أن تكون ابنة حرّاث ، جارّة نعجتها في حقل ، وعند المساء تعود إلى منزل أبيها ، وغبار الطريق يعلو قدميها وعبير الكروم يفوح من ثنايا ردائها ، حتى إذا أقبل الظلام ، وخيم بأجنحته ملاك الليل على العالم ، تسلّلت إلى نعجتها وتنسلّ بها إلى نهر الوادي حيث ينتظرها حبيبها .

« بل إنها لتودّ لو كانت راهبة في دير يحترق فؤادها بخوراً ، ويصّاعد طيباً مع الريح . وتفني روحها شمعةً في نورٍ يصّاعد نحو نور أسمى ، برفقة جميع أولئك الذين يتعبّدون والذين يُحبّون ويُحتبّون .

« كان الأفضل لو أنها امرأة من الطاعنات في السنّ ، تجلس تحت الشمس وتتذكّر ذاك الذي شاركها أيام صباها . »

واشتدّ ظلام الليل ، واربدّ وجه المصطفى مع الليل ، وأمست روحه غيمة مثقلة ، فصرخ ثانية :

« نامت روحي بعبء ثمارها الناضجة .
نامت روحي المثقلة بثمارها
من ذا الذي يأتي الآن فيقتات ويشبع ؟
إنّ روحي لتفيض بخمرتها
من ذا الذي يستقي الآن ويحتسي ويبترد من رمضاء الصحراء ؟

« ليتني كنت شجرة لا زهر لها ولا ثمر
فإنّ عناء الخصب أمرّ من القحط
وعذاب الموسر الذي لا يجد من يأخذ منه
أكبر من عذاب المتسوّل الذي لا يجد من يعطيه

« ليتني كنت بئراً ناضبة ، جافّة
والناس يلقون بي الأحجار
فإن ذلك أجدى وأخفّ حملاً من أن أكون ينبوع ماء حيّ .
يمرّ به الناس ولا يشربون

« ليتني كنت قصبة يدوسها المارّة بأقدامهم
فإن ذلك خير من أن أكون عوداً ذا أوتار فضيّة في بيت ليس لصاحبه أنامل
وأولاده صمّ . »

١٥

ثم انقضت سبعة أيام وسبع ليال ، لم يمر خلالها أحد قرب الحديقة ، وأقام وحيداً مع ذكرياته وعذابه . وذلك لأن الناس انصرفوا عنه ، ومضوا يبحثون عن أماكن أخرى ينفقون فيها أيامهم ، حتى الذين أصغوا إلى كلماته بحبّ وأناة .

إلا أن كريمة وحدها أقبلت ، والصمت يعلو محياها كأنّه حجاب . وبيدها قدح وصحن ، ولحم وشراب ، ثم مضت لشأنها ، بعد أن وضعت هذه الأشياء أمامه .

وعاد المصطفى إلى صحبة أشجار الحور البيضاء ، وجلس وراء بوابته يتأمل الطريق ، وإذا به يبصر ، بعد برهة ، شبحاً كأنّه غمامة لاهثة على الطريق ، قد أقبل عليه . وانجلت تلك الغمامة عن الأشخاص التسعة ، وأمامهم كريمة تقودهم .

تقدّم المصطفى ولاقاهم على الطريق ، ومرّوا من البوابة ، وكان كل شيء على ما يرام، ثم مضوا كما لو أنهم تابعوا السير ، ولم ينقطعوا عنه سوى ساعة .

دخلوا وتناولوا عشاءهم معه على مائدته البسيطة ، بعد أن أضافت كريمة إليها بعض الخبز والسمك وسكبت آخر ما لديها من خمرة في الأقداح . وفيما كانت تسكب ، توجهت للمعلم برجاء قائلة : « اسمح لي أن أذهب إلى المدينة ، وأبحث عن خمر أملأ بها الأقداح من جديد ، بعد أن نفد ما لديّ منها . »

ونظر إليها ، وكان في عينيه طيف رحلة وبلدٍ بعيد ، وقال : « لا ! إن هذا كافٍ حتى الساعة . »

وأكل الجميع وشربوا وكانوا في سرور ، حتى إذا فرغوا ، تكلّم المصطفى بصوت جهوريّ ، عميقٍ كالبحر ، زاخر كالتيار الدافق في ضوء القمر ، وقال : « يا أصحابي ويا رفاق طريقي ، لا بُدّ لنا من أن نسافر اليوم . لقد مضى علينا زمن طويل قطعنا به البحار المهلكة ، وتسلّقنا الجبال الوعرة وصارعنا العواصف . ولقد عرفنا الجوع ، غير أنّنا جلسنا أيضاً إلى مآدب الأعراس ، وغالباً ما كنّا عراة ، ولكنّا ارتدينا أيضاً حللاً ملكية .

ولقد سافرنا ، في الحقيقة ، إلى أماكن بعيدة ، ولكنّنا الآن نرحل . ستذهبون معاً في طريقكم ، ولكن سأسلك وحدي في طريقي .

« وإنّنا سنظلّ ، وإن كانت البحار والبراري الشاسعة ستفصل بيننا ، رفاق سفر إلى الجبل المقدّس .

« غير أني أودّ ، قبل أن نمضي في مسالكنا الوعرة الشاقّة ، أن أقدم لكم حصاد قلبي ولقاطه :

« سيروا في سبيلكم وأنتم تغنّون ، ولكن لتكن كلّ أغنية قصيرة لأن الأغاني التي تموت باكراً على شفاهكم ، هي وحدها التي تعيش في قلوب الناس .

« قولوا حقيقة جميلة في كلمات قليلة ، ولا تقولوا أبداً حقيقة قبيحة أية كانت الكلمات . قولوا للفتاة التي يلمع شعرها في الشمس إنها بنت الصباح . ولكن إذا شاهدتم الأعمى ، إياكم أن تقولوا له إنّه هو والليل شيء واحد .

« وأصغوا إلى عازف الشبابة كما لو كنتم تصغون إلى نيسان ، ولكن إذا أنتم سمعتم الناقدين والباحثين عن الزلاّت يتكلّمون ، كونوا صمّاً كأنكم عظام جامدة ، وابتعدوا إلى أبعد ما يستطيع بكم الخيال .

« يا رفاقي ويا أحبّائي ! ستلاقون في طريقكم رجالاً ذوي أظلاف ، فأعطوهم من أجنحتكم ، وآخرين ذوي قرون ، فقدّموا لهم أكاليل غار ، ورجالاً ذوي مخالب ، فأعطوهم أوراق زهر لأناملهم ، وآخرين ذوي ألسنة حادّة ، فأعطوهم عسلاً لكلامهم .

« أجل ! ستلاقون هؤلاء جميعاً وأكثر . ستلاقون عرجاً يبيعون العكاكيز ، وعمياناً يبيعون المرايا ، وستلاقون الأغنياء على أبواب المعابد يتسوّلون .

« أعطوا العَرْبج من رشاقتكم ، والمُشْي من بصركم ، وانظروا إذا كنتم تعطون من أنفسكم للأغنياء المتسوّلين ، فهؤلاء أفقر أهل الأرض ، لأن ما من رجلٍ يمدّ يده للصدقات إلا إذا كان حقيقة فقيراً ، وإن كان ذا أملاك وافرة .

« يا رفاقي ويا صحابي ! أوصيكم باسم الحبّ الذي يجمع قلوبنا ، أن تكونوا مسالك لا حصر لها يتلاقى بعضها مع البعض الآخر في الصحراء حيث تسير الأسود والأرانب ، وتطوف الذئاب والنعاج .

« واذكروا هذا عني ، أنا لا أعلمكم أن تعطوا ، بل أن تأخذوا ، ولا ألقنكم النكران بل الوفاء ، ولا الاستسلام بل الفهم بابتسامة على شفاهكم .

« أنا لا أعلمكم الصمت ، بل الغناء ولكن بصوت غير صاخب .

« أنا أعلمكم أن تحققوا ذاتكم الرحيبة التي تسع الناس أجمعين . »

ونهض عن المائدة ، وذهب يمشي في خطّ مستقيم نحو الحديقة ، وسار في ظلال السرو ، بينما كان النهار ينحدر إلى مغربه ، وتبعوه عن مسافةٍ قريبة إذ كانت أفئدتهم مثقلة ، وألسنتهم معقودة .

وجاءته كريمة وحدها ، بعد أن طرحت فتات المائدة جانباً ، وقالت : « أودّ يا معلّم أن تسمح لي بإعداد الزاد لرحلتك وغدك . »

نظر إليها بعينين تطل منهما عوالم أخرى غير هذا العالم ، وقال : « يا أختي ويا حبيبتي ! الزاد مُمَدّ منذ بدء الزمن . والطعام والشراب جاهزان للغد ، وحتى لأمسنا ويومنا .

« أنا ذاهب ، غير أني إذا ذهبت ولديّ حقيقة لم أقلها بعد ، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشدائي وتلملمني ، وإن كانت عناصر جسمي قد تبدّدت في صمت الأبدية ، وأعود ثانية إليكم ، بحيث أستطيع أن أكلمكم من جديد بصوتٍ يرتفع من قلب ذلك السكون الأبديّ .

« وإذا كان ثمة شيء من جمال لم أصرّح به لكم ، فسأدعى ثانية باسمي ، أجل باسمي ذاته « المصطفى » ، وسأعطيكم علامة تعرفون بها أني رجعت لأقول كلّ ما أنتم في حاجة إلى قوله ، لأن الله لن يأذن بأن يخفى على الإنسان ، ولا أن تظلّ كلمته محجوبة في حفرة خفيةٍ من قلب إنسان .

« سأحيا وراء الموت ، وسأغني في أسماعكم

حتى بعد أن تحملني أمواج البحر وتعيدني إلى أعماق الخضمّ الأكبر .

وسأجلس إلى مائدتكم ، حتى من غير جسد

وسأذهب معكم إلى حقولكم ، روحاً غير منظورة .

سآتيكم إلى مواقدكم ضيفاً لا ترونه .

الموت لا يغيّر شيئاً سوى الأقنعة التي تغطي وجوهنا .

وسيظلّ الحطّاب حطّاباً

والحرّاث حراثاً

والذي يغنّي أغنيته للريح ، سيظلّ أيضاً يغنيها للأفلاك الدائرة . »

وكان التلامذة صامتين صمت الحجارة . والأسى يفعم قلوبهم ، لأنه قال « أنا ذاهب » ، غير أن أحداً منهم لم يضع يده في طريقه لإبقائه ، ولا تبعه أحد ، وهو يخطو .

وخرج المصطفى من حديقة أمّه ، وكانت خطواته هادئة ، لا صوت لها . وما هي إلا لحظة ، حتى انطلق مرتفعاً عنهم وابتعد ، كورقة ممزّقة حملتها الزعازع ، وأبصروا من أثره ، كلّ ما أبصروه ، نوراً شاحباً يتحرّك في أجواز السماء .

وسار التسعة في طريقهم يهبطون ، ولكنّ المرأة ظلّت واقفة في الليل الزاحف ، تشهد كيف أصبح النور والغسق شيئاً واحداً ، وراحت تواسي وحدتها ووحشتها بكلماته : « أنا ذاهب ، ولكن إذا أنا ذهبت ولديّ حقيقة

لم أقلها بعد ، فإن تلك الحقيقة نفسها ستسعى في نشداني وتلمسي ، وأعود إليكم مرة ثانية . »

١٦

ثم وكان مساء .

وكان قد بلغ الروابي . وقادته خطاه إلى السديم ، ووقف وسط الصخور وأشجار السرو البيضاء ، محجوباً عن كلّ ما حوله ، فأخذ يتكلّم قائلاً :

« أيتها الغمامة ، يا أختاه ، يا نسمة لم تشاهد بعد في قالب .
أعود إليك نسمة بيضاء لا صوت لها ،
وكلمة لم يفه بها أحد بعد .

« أيتها الغمامة ، يا شقيقتي المجنّحة ، نحن الآن معاً
وسنظلّ معاً إلى أن يُلقيكِ يوم الحياة الثانية
قطرات ندى ، في الفجر ، على حديقة .
وأنا طفل في حضن امرأة
تتذكر ماضينا معاً .

« أيتها الغمامة ، يا أختي ! عدت قلباً يصغي إلى أعماقه ،
مطمئناً كقلبك
وشوقاً خافقاً لا هدف له مثلما هو شوقكِ
وفكرة لم تُجنّ بعد كفكرتك

« أيتها الغمامة ، يا أختي ، ويا بكر أمي !
يداي لا تزالان تحملان البذور الخضر التي أمرتني أن أنثرها .
وشفتاي مختومتان على الأغنية التي أمرتني أن أغنيها
وأنا لم آتيكِ بثمرة ، ولم أحمل إليكِ أصداء
لأنّ يديّ كانتا عمياوين ، وشفتيّ لا تنبسان .

« أيتها الغمامة ، يا أختي ! أحببت العالم كثيراً ، والعالم أحبّني
لأنّ بسماتي كلها كانت على شفاهه ، وكلّ دموعي في عيونه
وكان ، مع ذلك ، بيننا برزخ من صمت لم يضع فوقه جسراً
ولم أستطع من جانبي أن أعبره .

« أيتها الغمامة ، يا أختي ، يا شقيقتي التي لا ينالها الموت
أنا أنشد الأناشيد العتيقة لأولادي الصغار
وهم ينصتون ، والدهشة تعلو وجوههم
ولكن يمكن أن ينسوا الأنشودة غداً
وأنا لا أعرف إلى مَن سيحملها الريح
وهي وإن كانت ليست لي ، فإنّها بلغت فؤادي
وأقامت برهةً على شفتيّ .

« أيتها الغمامة ، يا أختي
رغم أن كل ذلك مضى وانقضى ، فإني في سلام
لقد كان كافياً أن أغني لمن ولدوا
وإنّه ، وإن كان الغناء ليس لي في الحقيقة ،

ليرتفع من أعمق أشواق فؤادي

« أيتها الغمامة ، يا أختي الغمامة
أنا وأنت الآن شيء واحد
لم أكن ذاتاً منذ زمن طويل
الجدران انهارت
والسلاسل انكسرت
وأنا ارتفعت إليكِ
وسنُبحر معاً إلى أن يأتي يوم الحياة التالية ،
عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقة ،
ويقذف بي طفلاً في حضن امرأة . »